يستطيع أن يقوم لصلاة الفجر، ولا يستطيع أن يقوم بشعائر الإسلام ولا يؤديها، فحري به أن لا يكون عالة وبلاءً على غيره.

كذلك من أسباب النصر: بين النبي ﷺ أسبابًا كثيرة، يقول – عليه الصلاة والسلام –: (وهل تنصرون إلا بضعفائكم؟!). فانظر – رحمك الله – إلى أمة إذا كان الضعيف إذا استصرخ استُصرخ، وإذا ضاع حقه أعطي حقه وأنصف ممن أخذ منه الحق: فعندها يفتح الله أبواب النصر على الأمة. أما إذا أصبحت تضيع حقوق الضعفاء والبؤساء، ويستصرخ المستصرخ ولا يجد نصيرًا ولا ظهيرًا، حتى في العامل يعمل عند الإنسان قد يظلمه أجرته؛ لأنه ضعيف غريب! فعندها لا تتأهل الأمة لنصر ولا ظفر. ونسأل الله بعزته وجلاله وعظمته وكماله أن يرحمنا برحمته، وأن يعيننا على اتباع كتابه وسنة نبيه ﷺ.

يقول المصنف – رحمه الله تعالى –: **[عن عبد الله بن أبي أوفى** رضي الله عنه: **أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: (يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم: فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) ثم قال النبي ﷺ: (اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم)]**.

[...] أما بعد: فقد تقدم معنا الحديث عن مسائل هذه السنة الواردة عن رسول الله ﷺ. وقوله – عليه الصلاة والسلام –: **[(اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم)]** دعوة من رسول الله ﷺ في حال الضرورة التي يصدق فيها العبد ربه بالالتجاء والاحتماء والعوذ واللوذ بالله جل جلاله، بإله الأولين والآخرين وديان يوم الدين، الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه. سأل ربه – عليه الصلاة والسلام – بهذه الدعوة التي نص العلماء – رحمهم الله – على أن من السنة: أن يدعو المسلم بها عند لقاء العدو. واستفتحها عليه الصلاة والسلام – كما تقدم معنا –

بتوحيد الله وتمجيده والثناء عليه ﷻ، فقال: **[(اللهم منزل الكتاب)]** وقد بينا معنى هذه العبارة وما تضمنته من المعاني، وكذلك قوله: **[(ومجري السحاب)]**.

وقوله: **[(وهازم الأحزاب)]** "الأحزاب" جمع حزب، ولا يخلو المراد من أحد أمرين:

إما أن يكون مراده – عليه الصلاة والسلام – بالأحزاب: أحزاب الكفر التي كذبت الله ورسله – صلوات الله وسلامه عليهم إلى يوم الدين –، والذين طغوا وبغوا وأسرفوا وأرجفوا وأوجفوا حتى أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. فأملى لهم الله، والله يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، فهم الأحزاب الذين كذبوا الله ورسله، وشاقوا الله ورسوله، وعادوا الله ﷻ وعادوا رسله وعادوا أولياءه، وهم في كل زمان ومكان؛ لأن الصراع بين الحق والباطل باقٍ ما بقي الزمان، وتعاقب الملوان، ولكن الأمر لله أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، وسرًّا وعلنًا، فهو – سبحانه – المتفرد بتصريف الأمور ﷻ.

فإن كان المراد بالأحزاب العموم: فلله سنة أنه ما اجتمعت الأحزاب ولا تحزبت على عداوته وعداوة أوليائه وأذية أوليائه وظلمهم واضطهادهم إلا هزمهم الله ﷻ، وهذه سنة من الله ﷻ في الذين كفروا وعصوا الله ورسله – صلوات الله وسلامه عليهم إلى يوم الدين –: أنه لا يفلتهم من عقوبته، وأيضًا: فيه حكمة تنبه على أن الكفر وأهله وشيعه أنه إذا مكن لهم في حين – ولن يمكن لهم – إنما هو أمر ظاهر، ولكن الحقيقة: أن مآلهم إلى وبال، وعاقبتهم إلى سفال، والله هو الكبير المتعال الذي لا يعجزه شيء ﷻ، ولذلك بين في كتبه وعلى لسان رسله – صلوات الله وسلامه عليهم – أنه يستدرج الظلمة والظالمين والكفرة والكافرين من حيث لا يعلمون.

وبين النبي ﷺ بقوله: [(**وهازم الأحزاب**)] إن كان المراد به العموم: فهي سنة من الله ﷻ أنه لن يجتمع قوم ولن يجتمع حزب ولا أمة على عداوة دينه وشرعه إلا أخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾.

وبين النبي ﷺ أن الخلق يستعجلون وأن الناس تستعجل أمر الله ﷻ، وأن من ضعف الإيمان: النظر إلى حال الكفر إذا أرجف وأوجف، وأظهر ما هو فيه من الكبر والتعالي على الله والتعالي على أوليائه، فضعاف الإيمان يخدعون، ولكن أهل الإيمان على الثبات وعلى اليقين ﴿ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ فأخبر الله – سبحانه – أن أولياءه موقنون بأنه هازم الأحزاب لا محالة. والهزيمة التي يلحقها الله بأعدائه على ضربين جمعها الله لأهل الكفر وشيعه وأحزابه، فهي سنته التي لا تتبدل ولا تتحول ولا تتغير: أنهم مهزومون حسًّا ومعنى. ولكن الهزيمة الحسية التي يغلب فيها المسلمون الكافرين فيكون لهم الظهور عليهم: لا تكون إلا لأوليائه الذين صدقوا معه، ولذلك أخبر الله – تعالى – أنه ينصر رسله وأنه ينصر الذين آمنوا ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ فأخبر – سبحانه وهو أصدق القائلين – أنه ينصر، لكنه ينصر من آمن فصدق في إيمانه وثبت في يقينه، فهذا لا شك أنه منصور لا محالة – إن عاجلًا أو آجلًا –.

وأما النصر المعنوي: فإن الكفر لا نصر له، فهو في الظاهر وإن انتصر فلا تنتصر مبادئه، ولا تنتصر أقواله، ولا تنتصر أفكاره؛ لأن الحق يعلو ولا يعلى عليه، والإسلام يعلو ولا يعلى عليه. ولذلك من تأمل وقرأ في التاريخ فوجد دول الكفر إذا طغت وبغت: إنما يكون طغيانها وبغيها عقوبة من الله لأهل الإسلام في زمان من الأزمنة إذا تركوا دينهم وتركوا اتباع نبيهم – عليه الصلاة والسلام –، ولكن لا يكون لهم نصر المعنى. وأما المسلمون: فقد جمع الله لهم

بين نصر الحس والمعنى، ولذلك كانوا إذا فتحوا الأمصار فتحوا القلوب قبل أن يفتحوا الديار، وكانت أخلاقهم وشمائلهم وآدابهم وتمسكهم بدينهم هو الوسيلة التي تقربهم إلى الله زلفى، وهو الملمح الذي يلمحه أعداؤهم فيهم فيكبرونهم ويجلونهم ويعتقدون فضلهم، كما أخبر الله ﷻ عن أهل الكفر فقال: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾.

فهزيمة الأحزاب إما أن تكون حسية: كما حصل يوم بدر، فنصر الله نبيه – عليه الصلاة والسلام – على الكفر ظاهرًا وباطنًا، وكما وقع في غزواته – عليه الصلاة والسلام –. وإما أن تكون معنوية، وهي: أن يطغو الكفر فيجعل الله طغيانه تنفر منه الناس، وينكشف الكفر على حقيقته، فكم من أزمنة تنشر فيها مبادئ مضللة لأهل الضلال والكفر يخدع بها المسلمون ويخدع بها غير المسلمين، فيأبى الله إلا أن يكشف زيفها، فلو جمعت الخطباء والبلغاء على أن يكشفوا زيف الكفر: ما استطاعوا أن يكشفوه حينما يمكن الله لهم فيظهر كذبهم ويظهر نفاقهم وتظهر خديعتهم للناس، فهذا هو النصر المعنوي، فإن تخلف نصرٌ حسي فالنصر المعنوي موجود، والعجيب: أنك تجد الكفار حتى ولو طغوا فإنهم يشيدون بالإسلام، وإن كانوا في الظاهر يخدعون بذلك المسلمين ولكن يأبى الله إلا أن يذلهم بأن يشيدوا بالإسلام كدينٍ وشريعة، فهو منصورٌ وإن كان في الظاهر إذا تخلف عنه أهله سلبوا الخير الكثير. فنسأل الله بعزته وجلاله أن يعيد الأمة إلى دينها، وأن يثبتها على صراط ربها، وأن يرحم ضعفها، وأن يجبر كسرها، وأن يؤلف بين قلوب أهلها.

وأما الوجه الثاني في قوله: **[(هازم الأحزاب)]** أن يكون المراد به: ما كان يوم الخندق، إذ جاء الأحزاب من فوق المدينة ومن أسفل منها، كما أخبر الله ﷻ عن ذلك في سورة الأحزاب ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ

﴿ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ كان هذا اليوم من أشد الأيام على أصحاب رسول الله ﷺ، وانكشف فيه نفاق المنافقين وصدق الصادقين ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ فجاء الأحزاب – وهم قريش وغطفان – وجاءوا من أسفل المدينة من جهة جبل أحد – وهي التي تعرف الآن بمنطقة العيون –، فدخلوا من مجمع الأسيال بذنب نقماء، وفي السير قال لأبي سفيان: "أتيت بغطفان فأنزلتهم بمجمع الأسيال من ذنب نقماء" وهو الذي يسمى الآن عند العامة بـ"النقمي" – سيل النقمي – جهة الخليل. فنزلت غطفان هناك، ثم تقدمت قريش إلى الطريق المعروف الآن بطريق أبي بكر الصديق – الذي هو شارع سلطانة –، وكان ذلك مجمع الأحزاب دون الخندق؛ لأن الخندق من طرف جبل سلع إلى أكمة الشيخين جهة المستراح. فتحزب الأحزاب من أسفل المدينة من هذه الجهة وجاء بنو قريظة، تمالأ بنو قريظة مع قريش على رسول الله ﷺ، فنقضوا عهدهم ونكثوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ، وهم في العالية – في عالية المدينة –، فأصبحوا من فوق المدينة ومن أسفل منها، وكان يومًا عصيبًا على المسلمين، واجتمعت قريش بقضها وقضيضها ورجالها وعديدها وكذلك بقية القبائل، ورموا النبي ﷺ وأصحابه بقوسٍ واحدة، فأبى الله ﷻ إلا أن يهلكهم بالريح.

ولذلك هذه الغزوة كفى الله المؤمنين فيها القتال، وكانت آيةً من آيات الله ﷻ! حيث أرسل الله عليهم الريح لا تبقي منهم ولا تذر حتى صاح فيهم أبو سفيان: "لا مقام لكم فارحلوا" فارتحلوا، فكانت آية من آيات الله ﷻ في الهزيمة؛ لأنه لم يكن كسر شوكة الكفار بالقتال وإنما كان بالريح. ومن هنا: استنجد النبي ﷺ بمن أرسل الرياح العاتية وسخرها وهي مقبوضةٌ وجارية ﷻ، فقال: **[(وهازم الأحزاب)]** فذكر هذا اليوم. إن أريد بقوله: **[(الأحزاب)]** "ال" للعهد: فتكون خاصة، وحينئذٍ لا يراد بها العموم، وأما على الوجه الأول: فلا إشكال، فالله هو الذي يهزم أحزاب الكفر ويهزم أحزاب الباطل في كل زمان ومكان.

توسل رسول الأمة ﷺ إلى ربه بهذه الكلمات الطيبات المباركات – وكل كلامه كان بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه طيبًا مباركًا –، فقال هذه الدعوة: **[(اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب، اهزمهم)]** والضمير يعود إلى الكفار الذين لقيهم في ذلك اليوم **[(وانصرنا عليهم)]** وهذا من المناسبة **[(هازم الأحزاب اهزمهم)]**.

وقوله – عليه الصلاة والسلام –: **[(وانصرنا عليهم)]** استغاثةٌ واستجارةٌ بالله ﷻ وطلبٌ للمدد من الله ﷻ، وفيه دليل على أن المسلمين إذا لقوا العدو عليهم أن لا يغتروا بالعدد والعدة، ولا بالكثرة ولا بالشجاعة ولا بالحمية، ولكن عليهم أن يظهروا الفقر لله ﷻ وأن يظهروا الفاقة إليه؛ لأن الله بين في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ أن النصر لا سبيل إليه إلا منه ﷻ ﴿ **وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ** ﴾ فأخبر ﷻ بأسلوب النفي والإثبات أنه لا نصر إلا من عند الله، فويلٌ للأمة إذا لم يرض عنها ربها! وهنيئًا لها إذا أرضت ربها ولقيت العدو على وجه يرضي الله ﷻ؛ فقد تأذن الله بنصرها.

وفي هذا دليل على مشروعية الدعاء عند لقاء العدو، وهذا من ذكر الله ومن توحيده – سبحانه –؛ لأن الدعاء هو العبادة، كما أخبر ﷺ في الحديث الصحيح عنه: (الدعاء هو العبادة). فسؤال الله ﷻ في هذا الموطن والالتجاء إليه مطلوب؛ لأنها ساعة كرب وساعة ابتلاء، وقد يبتلي الله المسلمين فينكسروا، ولذلك أخبر النبي ﷺ يوم أحد لما صاح صائح قريش بأنهم انتصروا وقال: اعل هبل. قال: (الله أعلى وأجل). ثم بين أن الحرب سجال يومٌ للمسلمين ويومٌ عليهم، فعلى المسلمين أن يلتجئوا إلى الله ﷻ بالدعاء، وبين العلماء – رحمهم الله – أنه يشرع هذا الدعاء في جميع موطن لقاء العدو، سواءً كان في جهاد الدفع أو كان في جهاد الطلب.

قال – رحمه الله تعالى –: **[٤٢٨ – عن سهل بن سعد** ﷺ: **أن رسول الله** ﷺ **قال: (رباط يومٍ في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خيرٌ من الدنيا وما عليها)]**.

في هذا الحديث الشريف الذي يرويه أبو العباس سهل بن سعدٍ الساعدي – رضي الله عنه وأرضاه – صاحب رسول الله ﷺ بين فيه – عليه الصلاة والسلام – فضل الرباط وفضل الجهاد في سبيل الله، وهذا كله يدل على علو منزلة هذه الشعيرة – وهي جهاد الكفار لإعلاء كلمة الله ﷻ –، بين النبي ﷺ ما فيها من الفضل العظيم والثواب الكريم من الله ﷻ فابتدأ – أولًا – ببيان فضل الرباط، والرباط هو: ملازمة الثغور وحراستها. ولا شك أن ثغور المسلمين إذا لم تحرس دخل منها العدو، ومن هنا: بين النبي ﷺ فضل الصبر والمرابطة والملازمة لهذه الثغور. وهذا الفضل للرباط؛ لأن المرابط في الثغور يخلف الدنيا وراء ظهره ويترك شهواتها ولذاتها، ويحتسب نفسه دون المسلمين، فهو يفديهم بروحه ويجعل نحره دون نحورهم ودون عوراتهم وأعراضهم.

والرباط ينقسم إلى قسمين: قد يطلق بالمعنى الخاص – وهو المراد هنا – وهو: ملازمة الثغور. وقد يطلق بالمعنى العام وهو: ملازمة الخير والطاعة. ولذلك جعل النبي ﷺ انتظار الصلاة بعد الصلاة من الرباط، فقال – كما في الحديث الصحيح –: (ألا أنبئكم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟) قلنا: بلى يا رسول الله. قال: (إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة؛ فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط). ذلك لما فيه من الملازمة لذكر الله وطاعة الله، ولما كانت الصلاة هي أعظم العبادات وأشرفها بعد توحيد الله ﷻ صار المرابطة على هذه الطاعة أعظم وأفضل، فعبر عنه

بصيغة تدل على علو شأنه وعظم أجره فقال: (فذلكم الرباط، فذلكم الرباط) فدل على أن الرباط يطلق في الشرع على المعنى العام وهو: ملازمة الطاعة والخير، فمن لازم المساجد مصليًا قانتًا ذاكرًا فهو مرابط، ومن لا زم حلق الذكر يطلب العلم فهو مرابط، ومن لازم أمه وأباه بارًّا محسنًا إليهما فهو مرابط وهكذا، فهذا معنى الرباط العام، وقد وصى الله به عباده المؤمنين فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وأخبر أن الرباط هو سبيل المفلحين وطريق الفائزين – جعلنا الله وإياكم منهم برحمته وهو أرحم الراحمين –.

وأما الرباط بالمعنى الخاص – وهو ملازمة الثغور وحراستها –: فهذا هو المقصود هنا وهو المراد هنا، وفضله عظيم وثوابه كبيرٌ من الله ﷻ، وهذا الحديث في الصحيح يدل على فضله في قوله: **[(رباط يوم في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها)]** أي: أن المسلم إذا حرس الثغر – أيّ ثغرٍ من ثغور المسلمين – ورابط فيه؛ ليكفي المسلمين شر أعدائهم: فإن اليوم الواحد له خيرُ من الدنيا وما فيها. قال بعض العلماء: إن المراد بالخيرية: أن هذا مثل من النبي ﷺ أراد به أنه لو كانت له الدنيا بأيامها وساعاتها وقضاها في الطاعة لم تفضل ما يكون في أجرها ما يكون من الأجر في الرباط! وهذا فيه نكتةٌ عظيمة؛ لأن الأعمال الصالحة تنقسم إلى قسمين: قسمٌ منها يتعلق بالإنسان، وقسمٌ منها يتعدى نفعه إلى الغير. والرباط من الذي تعدى نفعه إلى الغير، والذي يتعدى نفعه إلى الغير ينقسم إلى درجات وأنواع كثيرة، فإذا كان الذي يتعدى نفعه إلى الغير متعلقًا بأعظم الأعمال وأحبها إلى الله – كتوحيد الله – كان أجره في أعلى المراتب: كدلالة الناس على الإسلام وهدايتهم ونحو ذلك، فهذا من أعظم ما يكون وأجره عند الله في أعلى المراتب، ثم بعد ذلك تتفاضل بحسب ما يكون منها من الخير للمسلمين، ولذلك نبه العلماء على أن الطاعات المتعدية أفضل من الطاعات القاصرة، والأصل في ذلك: ما ثبتت به السنة عن رسول الله ﷺ في قوله: (إن

فضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب ليلة التمام – أو ليلة البدر –) ووجه الدلالة: أن العالم فضله متعدٍّ وأن العابد فضله قاصر على نفسه، ومن هنا: فضل النبي ﷺ العلماء على العباد من هذا الوجه، فأخذ العلماء منه: أن الطاعات التي يتعدى نفعها إلى الغير أعظم.

كذلك دفع الشرور، فمن يدفع عن نفسه الشر ليس كمن يدفع الشر عن أهله، ومن يدفع الشر عن أهله ليس كمن يدفعه عن مدينته، ومن يدفعه عن مدينته ليس كمن يدفعه عن عموم المسلمين، ومن هنا: مر رجلٌ على غصن شوكٍ فقال: "والله لأنحينه عن الطريق لا يؤذي المسلمين" فزحزحه عن الطريق، فغفر الله له ذنوبه، قالوا: لأنه لما زحزح الغصن نوى أن يدفع الشر عن المسلمين فقال: "والله لأنحينه عن طريق المسلمين لا يؤذيهم" فدل على أن نيته أن يدفع الشر عن المسلمين. فهناك صورتان في النفع المتعدي: إما أن ينفع المسلمين فيجلب لهم النفع – كتعليمهم ونحو ذلك –، وإما أن يدفع الشر عنهم. والحديث هنا في الرباط هو في باب دفع الشر، فأصبح المتعدي إما في طلب منفعة أو دفع مضرة، فما كان من الأعمال فيه دفع مضرةٍ عامة أو فيه جلب منفعةٍ عامة: فأجره عند الله أعظم، ولذلك جعل النبي ﷺ المؤذنين أطول الناس أعناقًا؛ لأنهم ينفعون الناس فيعلمونهم بدخول وقت الصلاة، ولما كان هذا في أحب الأعمال إلى الله – وهي الصلاة – كان أجرهم أعظم. فكل من يطلب للمسلمين المنفعة ويدفع عن المسلمين الشر فإن هذا مقامه أعظم وفضله أكبر، ولذلك نبه العلماء على أنه ينبغي للمسلم إذا طلب الأعمال الصالحة: أن يطلب أعظمها أجرًا، وأكثرها نفعًا وتعديًا للغير.

بين النبي ﷺ أن رباط يومٍ في سبيل الله قوله: **[(في سبيل الله)]** أي: في الجهاد؛ لأن عبارة **[(في سبيل الله)]** خصها الشرع – كما هو في الغالب في نصوص الكتاب والسنة – بالجهاد في سبيل الله، فإذا أطلق فالمراد به: الجهاد في سبيل الله، وعليه فقوله: **[(رباط**

يومٍ)] أن يحرس في الثغور. وقد بين النبي ﷺ أنه ما من عينٍ تسهر في سبيل الله إلا حرمها الله على النار، وأنه ما من عينٍ تسهر في سبيل الله إلا حرم الله عليها البكاء يوم القيامة، فقال ﷺ: (كل العيون باكيةٌ أو دامعةٌ يوم القيامة إلا ثلاثة أعين: عينٌ سهرت في سبيل الله، وعينٌ بكت من خشية الله، وعينٌ غضت عن محارم الله) فهذا يدل على فضل السهر، ومن العلماء من قال: لما كانت العلة في الرباط: أن يسهر لدفع الشر عن المسلمين، فيدخل في هذا الفضل: من يعمل في حراسة المسلمين في أمنهم في المدن والقرى والطرقات وأسفارهم وإقامتهم، فالجنود الذين يحرسون ثغور المسلمين وأعراض المسلمين وأموال المسلمين إذا أخلصوا لوجه الله، واعتقدوا حفظ عورات المسلمين وأرادوا الثواب من الله في ذلك: فإنهم يؤجرون ويدخلون في هذا الفضل؛ لأن المعنى واحد، وهو: كفاية الشر ودفع الضرر عن المسلمين – سواءً كان عامًّا أو كان خاصًّا –.

والرباط من أفضل الأعمال في سبيل الله ﷻ؛ لما فيه من المخاطرة والضرر، ولذلك الذي يرابط يفدي المسلمين بروحه، ويجعل روحه دون أرواحهم ونحره دون نحورهم، ومن هنا: فضله الله ﷻ وجعل له هذه المنزلة العظيمة. وسواء كانت هذه الحراسة في حال المناوشة مثل: أن يكون على ثغر في حال الحد بين المسلمين والكفار – كما كان يقع للمسلمين أثناء الغزو والفتوحات –، أو كان ذلك بالرباط العام. واستحب العلماء أن يكون الرباط أربعين يومًا إذا رابط، وهذا مذهب جمهور العلماء – رحمهم الله –؛ لورود الأثر فيه. والفضل فيه عظيم، ولا حد لأقله – في أصح قولي العلماء – فلو رابط ساعةً أو رابط يومًا، لكن يتفاضل على حسب طول الزمان وقصره، ويتفاضل الرباط على حسب خطر الثغور: فالثغور التي تكون فيها مناوشات بين المسلمين والكفار، والتي لا يؤمن منها تسرب الكفار لأذية المسلمين، وتكون الحراسة عليها شديدة والخوف فيها أكثر: الرباط فيها أعظم، والثواب فيها أكبر، والأجر فيها أجزل من الله ﷻ. والثغور التي تكون هادئة أو تكون آمنة، أو أقل خطرًا أو أقل

ضررًا: فإن فضلها وأجرها دون ذلك؛ لأن الله أخبر أن لكلٍّ درجات مما عملوا، وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا.

وقوله – عليه الصلاة والسلام –: [(**وموضع سوط أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها**)] بين النبي ﷺ في هذا فضل الآخرة على الدنيا، وهذا ما اعتنت به نصوص الكتاب والسنة، ولذلك قال الله – تعالى –: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ وقال – سبحانه –: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ فالآخرة أعظم، ولا شك أن الباقي ولو كان قليلًا أفضل من الفاني ولو كان كثيرًا، قال بعض السلف: "عجبت لرجلٍ عاقل لو خير بين لبنةٍ من طينٍ تبقى ولبنةٍ من ذهبٍ تفنى: لاختار لبنة الطين التي تبقى، فكيف إذا كانت لبنة الذهب هي التي تبقى ولبنة الطين هي التي تفنى؟!" يشير إلى الدنيا والآخرة.

وقوله: [(**الدنيا**)] قيل: سميت دنيا؛ لدناءتها وخستها وحقارتها، فهي دنيئةٌ عند الله ﷻ حتى ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ ما يدل على ذلك في قوله: (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر فيها شربة ماء!). هذه الدنيا من أولها إلى آخرها لو قلت إنها عشرة آلاف سنة، ولا نريد أن نقول مثل هؤلاء الذين يقولون: عشرة مليون سنة، بدون حساب! يقولون: الديناصور كان يمشي على وجه الأرض من بلايين السنين! وخذ، الذي يكذب ما له حبل ولا له نهاية! لو كانت الدنيا ملايين السنين من أولها إلى آخرها لم تزن عند الله جناح بعوضة، فكيف بهذا الذي تعيشه لو عشت ستين سنة أو سبعين سنة؟! فكيف باللحظة التي أنت تعيشها من هذه الستين، بل من هذه الدنيا كلها التي لم تزن عند الله جناح بعوضة؟! وهذا إن دل فإنما يدل على خستها ودناءتها. ومما يدل على دناءتها: ارتفاع الوضيع فيها ووضع الشريف والرفيع فيها، ومن دناءتها: أن يصدق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق، وأن يحق فيها الباطل ويبطل فيها الحق، فهذا كله من دناءة

الدنيا، فتجد ألسنة الصدق تكذب وألسنة الكذب تصدق، وتجد النفاق وتجد الغش يحبه كثيرٌ من الناس؛ لأن الله أخبر أن أكثر الناس لا يعقلون، وأن أكثرهم يجهلون، فيحبون هذه الأمور وهي في الحقيقة سرابٌ بقيعة يحسبه الظمآن ماءً!

فهي الدنيا الدنيئة التي غرت أهلها وأوردتهم الموارد – نسأل الله السلامة والعافية –، ومن دناءتها: أنه ما ركن إليها عبدٌ يريد عزةً إلا أذله الله، وأنه ما ركن إليها عبدٌ يريد كرامةً إلا أهانه الله، وأنه ما ركن إليها عبدٌ يريد الغنى إلا أفقره الله! حتى إن العبد تجده يعيش إلى مئة سنة وهو يجمع أموالها ويبني قصورها ويشيد، ويجمع وينمي ماله ويستثمر، حتى إذا خرج منها خرج منها صفر اليدين إلا من طاعة الله ﷻ! ولذلك ثبت في الحديث الصحيح: أنها ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وطالب علم. هذا كله يدل على حقارتها ودناءتها، قالوا: فسميت دنيا؛ لدناءتها، وقيل: سميت الدنيا؛ لدنوها وقربها من الآخرة، فهي تسبق الآخرة، وهما وجهان مشهوران عند العلماء – رحمهم الله –.

وقوله هنا: **[(خيرٌ من الدنيا وما عليها)]** و"الدنيا" من بداية خلقها إلى نهاية الخلق هذه كلها **[(وما عليها)]** أي: ما فيها من الأموال، وما فيها من الأحوال، وما فيها من الزينة والزهرة، فإن موضع سوط المسلم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها! في هذا دليل على عظيم ما أعده الجليل لمن أطاعه وأتقاه، واتبع سبيله ورضاه. فيه دليل على عظيم ما أعد الله ﷻ لأوليائه وأهل طاعته في جنته ودار كرامته **[(موضع سوط أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها)]**. ولذلك عرف الصحابة – رضوان الله عليهم – ذلك حقيقة المعرفة، فشمروا عن ساعد الجد وأقبلوا على الآخرة، فكانوا صوام النهار قوام الليل، ولم يركنوا إلى هذه الدنيا ولم تغرهم بزهرتها، وضرب أصحاب رسول الله ﷺ المثل الصادق في الزهد من الدنيا، كيف وقد رأوا إمامهم وقدوتهم – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه – الذي أحبه الله وشرفه وكرمه، وعرض عليه جبال الدنيا ذهبًا، ومع هذا رأوه بأم أعينهم وقد نام على الحصير

فأثر في جنبه – صلوات الله وسلامه عليه –؟! ورأوه بأم أعينهم – صلوات الله وسلامه عليه – وقد ربط الحجر والحجرين، وقد علموا من حاله – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه – أنه يمر الشهر والشهران وما يوقد في بيته نار – صلوات الله وسلامه عليه –! ورأوا رسول الأمة وهاديها حبيب الله – صلوات الله وسلامه عليه – رأوه يخصف نعله ويرقع ثوبه؛ لأنه – عليه الصلاة والسلام – قد ملأ الله قلبه بالآخرة، ولذلك طلب ما عند الله وابتغى ما عند الله، فساروا على نهجه وابتغوا ما عنده. هذا النبي الكريم – صلوات الله وسلامه عليه – الذي عاش في حجراته، فكان إذا قام من الليل متهجدًا نامت زوجه وحبه بين يديه – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه –، فإذا أراد أن يسجد لم يجد موضعًا يسجد فيه، فيغمز أم المؤمنين حتى تقبض رجلها فيسجد؛ من ضيق المكان! نعم حجراتٌ ضيقة، فلم تكن من القصور المشيدة، ولم تكن فيها النمارق ولم تكن فيها الزخارف، ولكن كانت فيها أنوار التنزيل. كان ضيقها سعة، مملوءةً بالحكمة وما يتلى فيها من آيات الله والحكمة، فكانت فيها الأنوار التي شعت على مشارق الدنيا ومغاربها فملأتها عدلًا وصفاءً ونورًا ورحمة! نعم عاش – صلوات الله وسلامه عليه – في ضيق الحال من الدنيا، ولكنه في سعة الحال من ربه ﷻ.

فهذه الدنيا موضع السوط من الجنة لا تعادل به، وحينئذٍ: يدرك المسلم أنها لا تساوي أن يبيع من أجلها دينه – نسأل الله السلامة العافية –، وعندها يعلم أنه لا خير له في النفاق ولا خير له في الكذب حتى يصيب متاع الدنيا، وأن عليه أن يصدق مع الله وأن يطلب ما عند الله، وأن يعلم علم اليقين أن هذا الموضع من السوط الذي لا يعدل بالدنيا وما عليها لا ينال إلا بفضل الله ورحمته، ثم بالصدق مع الله وإرادة ما عند الله، وترك الغش والكذب والنفاق؛ لأن الجنة طيبة، وأهلها طيبون، ويدخل الملائكة عليهم من كل باب ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ ﴾.

وهذا الحديث فيه دليل على عظيم ما أعد الله في الجنة، وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (يقول الله – تعالى –: أعددت لعبادي ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر) هذا كله مع أن الله أخبر عن الجنة في كتابه فطارت القلوب شوقًا إليها، ووصفها – سبحانه – الوصف البديع الجميل الذي لا أبدع منه ولا أجمل، ومع هذا (أعددت لعبادي ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر)! وكان من عادة العلماء إذا بينوا هذه الأحاديث: أن يعتنوا بالتنبيه على هذه التشبيهات النبوية؛ لأن الناس بحاجة إلى معرفة مراد الشرع من هذا التزهيد في الدنيا وشحذ الهمم للآخرة، وهي سنة عند أهل العلم، ويدرك هذا كل من اطلع على شراح الأحاديث وخاصةً في كتب الوعظ، فيبينون أن هذه الكلمات عظيمة **[(موضع سوط أحدكم من الجنة خيرٌ من الدنيا وما عليها)]**.

(وغدوةٌ أو روحة) كما في الرواية الأخرى. الغدوة هي: واحدة الغدو، وهي: الذهاب في أي وقت ما بين طلوع الشمس إلى نصف النهار. هذا يقال له غدوة، وأما بالنسبة للروحة فهي: واحدة الرواح، وتكون من منتصف النهار – في أي وقت من منتصف النهار – إلى غروب الشمس، فيقال: "غدا" إذا كان في أول النهار، و"راح" إذا كان في آخر النهار.

(غدوةٌ أو روحة في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها) نعم، إنها الغدوة التي خرج فيها المجاهدون في سبيل الله ﷻ، إنها الغدوة التي يرمي الإنسان فيها وراء ظهره الدنيا وما عليها؛ لكي يقبل على الله قد باع نفسه وروحه في سبيل الله ﷻ، فكيف لا تكون خيرًا من الدنيا وما فيها؟! نعم، إنها الساعة التي يخرج فيها ولي الله المؤمن وقد رأى الموت بين عينيه! خرج؛ لأنه باع نفسه واشترى الله منه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ

﴿ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ فأخبر الله ﷻ أنهم باعوا وبين ﷻ أنه ربح بيعهم. فهؤلاء الذين خرجوا للجهاد في سبيل الله ولقتال أعداء الله، ولكسر شوكة الكفر مرضاةً لله ﷻ: غدوهم وخروجهم خيرٌ من الدنيا وما فيها! وهي الغدوة التي يطيب فيها الممشى، ويخرج الإنسان فيها إلى مرضاة الله وقد تكفل الله له وضمن له أنه إذا مات مقبلًا غير مدبر، لم تختلف نيته أنه لإعلاء كلمة الله وفي سبيل الله: تكفل الله وضمن له الجنة. فهي الغدوة التي يخرج الإنسان منها من بيته؛ حتى ينال سعادة الدنيا والآخرة، خرج إليها أصحاب رسول الله ﷺ وقد كتبت لهم السعادة في بطون أمهاتهم، وخرج لها أصحاب بدر؛ لكي ينادي عليهم منادي الله: (اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم). إنها الغدوة والروحة التي يراد بها ما عند الله ويبتغى بها وجه الله (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) (لغدوةٌ أو روحةٌ في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما فيها).

وفي هذا الحديث دليل على فضل الجهاد في سبيل الله ﷻ، وجاءت السنة ببيان الفضائل في الرباط، والجهاد في الغدو والجهاد في الرواح، وبيان فضله في الغدو وبيان فضله في الرواح، وما زالت السنة مع المجاهد في سبيل الله ﷻ وهو مقبلٌ غير مدبر، حتى إذا ضرب تلك الضربة التي يسيل فيها دمه، ويثعب معها جرحه، وينزف حتى تصعد روحه مع أرواح السعداء مع أرواح الشهداء ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾. بين النبي ﷺ فضل هذه العبادة – وهي الجهاد في سبيل الله وقتال أعداء الله – في جميع مراحلها: بمجرد أن يخرج **[(لغدوة أو روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها)]**. فإذا لقي العدو فضرب وسال دمه: أخبر النبي ﷺ عن فضله (يغفر للشهيد عند أول قطرة من دمه). فإذا خرجت روحه: لم يجد من حر الموت ولم يجد من أذاه ولا من شره ولا من ضره ولا من ضيقه ولا من سكرته، وكأنها قرصة خاطفة تخطف فيها روحه، ولذلك لما

سألت النبي ﷺ أم الشهيد عن ابنها فقالت: أخبرني يا رسول الله، أهو في الجنة؟ فقال ﷺ: (إنها جنان، وإن ابنك قد أصاب الفردوس الأعلى منها).

ما زال مع الشهيد – صلوات الله وسلامه عليه – والمجاهد في سبيل الله ﷻ وهي تسيل دماؤه، وهو يبشر بالجنة ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ تغفر له ذنوبه عند أول قطرة من دمه. فإذا سال الدم: سال الدم لكي يأتي يوم القيامة شهيدًا له بين يدي الله، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: أنه لما استشهد شهداء أحد قال – عليه الصلاة والسلام –: (زملوهم في ثيابهم؛ فإني شهيد لهم يوم القيامة). وفي الحديث الصحيح عنه – عليه الصلاة والسلام – أنه قال: (ما من كلْم يكلم في سبيل الله) أي: جرح يجرح في سبيل الله (إلا جاء يوم القيامة: اللون لون دم، والريح ريح مسك) فلا يغسل الشهيد ولا يكفن، وإنما يزمل بثيابه حتى يلقى ربه بحالته؛ لشرف الشهادة.

فإذا وضع في قبره إذا بالسنة تأتي وتخبرنا: أنه إذا وضع في قبره أنه لا يفتن، وأنه كفى ببارقة السيوف فتنة؛ لأنه قتل من أجل لا إله إلا الله، واستشهد من أجل لا إله إلا الله، فليس هناك مقام أن يسأل أو يفتن في قبره، وهذا كله يدل على فضل هذه العبادة، وما زالت السنة تبين وتبين منازل الشهداء ومراتب السعداء. نسأل الله بعزته وجلاله وعظمته وكماله أن يكرمنا بالشهادة في سبيله والموت في بلد رسوله، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير – والله تعالى أعلم –.